# دراســـات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

## تاريخ كلمة أدب

لا نجد « كلمة أدب » فيما بين أيدينا من الكلام المأثور عن الجاهليين ؛ ولكن ورودها فيما أثر عن الرسول ( صلوات الله عليه ) وعن الصحابة يرجح أنها كانت مستعملة قبل الإسلام فى المعانى التى دلت عليها فى عهد الرسالة أو فى معان قريبة منها

ولدينا روايات من صدر الإسلام منها :

١ — أن علياً رضى الله عنه قال للرسول : يا رسول الله : نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ورُبيت فى بنى سعد »[1] والتأديب هنا معناه التعليم

٢ — ورد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته » ، والمأدبة هنا موضع الأدب أى الكتاب الجامع ما يؤدب به الله الناس من أوامر ونواه ومواعظ وحكم

٣ — وروى عن عبد الله بن عباس أنه قال فى تفسير الآية : «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً» : فقهوهم وأدبوهم . وقال مُقاتل أحد التابعين فى تفسير الآية نفسها : أن يؤدب المرء نفسه وأهله فيأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر »[2] والأدب فى هاتين الروايتين يراد به التهذيب الذى يقرب من الخير ويبعد عن الشر

وفى العصر الأموى نجد الكلمة مستعملة فى المعانى المتقدمة أو ما يقرب منها :

جاء فى شعر مُزاحم العُقيلى وصفُ الجمل المذلَّل بالأديب قال:

فهن يَصرفنَ النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلل

وجاء فى خطبة زياد البتراء :

« فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدّبون لكم. أما والله لأؤدّبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمُنّ »

(١) بنو سعد : قبيلة من هوازن تنسب إليها حليمة السعدية مرضعة الرسول

(٢) الرسالة القشيرية : باب الأدب ، تفسير الفخر الرازي

وقال بعض الفزاريين من شعراء الحماسة :

أكْنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقّبه والسوأة اللقبا

كذاك أُدِّبت حتى صار من خلقى أنى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

واتخذ الخلفاء والكبراء فى العصر الأموى فما بعده معلمين يؤدبون أولادهم فكانوا يسمون « المؤدِّبين » وكانوا يؤدبون برواية الكلام البليغ الداعى إلى المكارم ، الحافز إلى المظائم . وقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال لمؤدِّب ولده : وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا[1]

وفى عيون الأخبار أن عمر بن عبد العزيز قال لمؤدبه : كيف كانت طاعتى إياك وأنت تؤدبنى ؟ قال : أحسن طاعة ، قال : فأطعنى الآن كما كنت أطيعك[2]

وكان المؤدبون ، حين يروون القصائد والخطب والأمثال ، يذكرون طرفاً من أخبار أصحابها ونُبذاً من الواقعات التى قيلت فيها فاستعمل الأدب فى الشعر والنثر وما يتصل به من أخبار ونوادر ، وفشا هذا العرف على مر العصور ، وسُمِّى من يروى الأدب وأخباره ويعلمه أديباً

وامتاز الأديب من الشاعر والكاتب . فإذا غلب على الرجل درس الأدب وتعليمه فهو أديب ، وإذا غلب عليه إنشاء الشعر فهو شاعر ، وإذا غلب عليه إنشاء النثر فهو كاتب . وربما جمع الرجل هذه الألقاب الثلاثة أو اثنين منها

وأطلقت كلمة « الأدب » منذ تلك العصور على المعنيين : المعنى الخلقى والمعنى الكلامى ؛ أعنى حسن الخلق والمعاملة والكلام البليغ وما يتصل به من أخبار . وقد ذكر هذين المعنيين ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » إذ قال : « ونحن نستحب لمن قبل عنا أو اتهم بكتبنا أن يؤدّب نفسه قبل أن يؤدّب لسانه ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه » ، وقيل لهذين المعنيين من بعد « أدب النفس وأدب الدرس »

فأما أدب النفس فقد توسعوا فيه حتى شمل كل طريقة مستحسنة فى علم أو عمل ، وألفت كتب باسم أدب القاضى وأدب المفتى ، وأدب القراءة ، وأدب المحدث ، وأدب البحث ، وأدب المتعلم ،

(١) كتاب نقد النثر ص ٢٠ وعيون الأخبار ج ٢ ص ١٦٧

(٢) ج ١ ص ٢٠١ ، وانظر وصايا المعلمين فى ج ٢

وأدب المريد ، وأدب النديم ، وأدب الدنيا والدين ونحو ذلك[1]

وأما أدب الدرس فقد وسعوه كذلك حتى شمل علوماً عُدّة سميت علوم الأدب أو علم الأدب ، وأحياناً يسمونها الأدب اختصاراً

## علم الأدب

لم يكن بد لدارسى الشعر والنثر من معرفة قوانين العربية التى تعصم ألسنتهم من الخطأ ؛ فكان كل متأدب يتعلم النحو وكل مؤدب يعلّمه إلى ما يعلّم من الأدب . فقد النحو من وسائل الأدب ، واختلط به . وكذلك علوم العربية الأخرى كلما وضع علم جعل من وسائل الأدب ووصل به . فاتصل بالأدب الصرف والنحو والعروض وفنون البلاغة وعلوم أخرى ، وسميت كلها علوم الأدب أو علم الأدب أو الأدب[2]

وأراد الباحثون فى الأدب بهذا المعنى أن يحدوه حدّاً واضحاً يبين ما يدخل فيه وما يخرج عنه فعرفوه تعريفات متقاربة ؛ منها :

١ — علم يُحترز به عن الخطأ فى كلام العرب لفظاً وخطّاً

٢ — علم يتعرف منه التفاهم عما فى الضمائر بأدلة الألفاظ والكتابة

٣ — حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف

وحصروا العلوم التى تدخل فى هذه التعريفات فجعلوا علوم الأدب ثمانية ، ثم زادوها إلى اثنى عشر ، عدّها ابن الأنبارى فى طبقات الأدباء ثمانية : اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والعروض والقوافى ، وصنعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم . ثم قال : « وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناها وهما علم الجدل فى النحو وعلم أصول النحو الخ »

وقسمها الشريف الجرجانى تقسيماً منطقيّاً إلى اثنى عشر :

قال فى مقدمة شرح المفتاح : « إن علم العربية المسمى بعلم الأدب علم يحترز به عن الخلل فى كلام العرب لفظاً أو كتابة . وينقسم — على ما صرحوا به — اثنى عشر قسماً ؛ منها أصول هى العمدة فى ذلك الاحتراز ومنها فروع »

ثم بين أن الأصول هى : اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعانى والبيان ( والبديع تابع لها ) والعروض والقافية

وأن الفروع هى : الخط ، وقرض الشعر ، وإنشاء النثر ، والمحاضرات ( ومنه التاريخ )[1]

وقال ابن خلدون فى فصل علم الأدب من المقدمة :

وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه

---

(١) وهذه أمثلة مرتبة على التاريخ :

١ — الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢

٢ — باب الأدب فى كتاب البخارى المتوفى سنة ٢٥٦

٣ — أدب القاضى للامام أبى يوسف المتوفى سنة ١٨٢

٤ — أدب القراءة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦

٥ — باب الأدب فى ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى سنة ٢٣١

٦ — أدب النفس لأبى العباس السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ ، ألفه للمعتضد بالله العباسى

٧ — أدب النديم لكشاجم الشاعر المتوفى سنة ٣٥٠

٨ — أدب الدنيا والدين للماوردى المتوفى سنة ٤٥٠

٩ — آداب الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى المتوفى سنة ٤١٥

(٢) ومن شواهد هذا أن ابن الأنبارى فى كتابه « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » ترجم للنحويين والأدباء معا . وقال فى ترجمة هشام بن محمد الكلبى :

« وأما هشام بن محمد بن السائب الكلبى فانه كان عالما بالنسب وهو أحد علوم الأدب ؛ فلهذا ذكرناه فى جملة الأدباء »

وقال ياقوت فى مقدمة معجم الأدباء :

« وجمعت فى هذا الكتاب ما وقع إلىّ من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والأخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة وكل من صنف فى الأدب تصنيفا أو جمع فى فنه تأليفا »

وألف أبو يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ كتابه « مفتاح العلوم » وقال فى مقدمته : « وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، القسم الثانى فى علم النحو ، القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان » وعد هذه العلوم من الأدب إذ قال فى المقدمة نفسها : « وقد ضمنت كتابى هذا من أنواع الأدب دون ( نوع اللغة ) ما رأيته لا بد منه وهى عدة أنواع متآخذة » ثم بين أن علم الاشتقاق تمام الصرف وأن المعانى والبيان يحتاجان إلى العروض والقافية

(١) بين الجرجانى طريقة التقسيم فى قوله :

« أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها فعلم اللغة ، أو من حيث صورها وهيئاتها فعلم الصرف ، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية فعلم الاشتقاق . وإما عن المركبات على الاطلاق فأما باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو ، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعانى ، أو باعتبار كيفية تلك الافادة فى مراتب الوضوح فعلم البيان . وإما عن المركبات الموزونة فأما من حيث وزنها فعلم العروض ، أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القافية

« وأما الفروع فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط ، أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر ، أو منثور فعلم إنشاء النثر من الخطب والرسائل ، أو لا يختص بشىء منها فعلم المحاضرات ومنه التاريخ »

وقد أثر تعميم « الآداب » وإطلاقها على معارف أخرى في قول الحسن ابن سهل :

« الآداب عشرة : فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج . وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الواحدة التي أربت عليهن فقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس[1] »

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ : « إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوي الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها »

وجاء في رسالة إخوان الصفاء :

« إعلم يا أخي أن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضة ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفة الحقيقية .

فالرياضة هي علم الآداب التي وضع أكثرها بطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا ، وهي تسعة أنواع : أولها علم الكتابة والقراءة ؛ ومنها علم اللغة والنحو ، ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ؛ ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ؛ ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ؛ ومنها علم الحرف والصنائع ؛ ومنها علم البيع والشراء والتجارات والحرث والنسل ؛ ومنها علم السير والأخبار »[2] ففي كلام ابن سهل والجاحظ واخوان الصفاء علوم سميت آداباً وليست من علوم الأدب المصطلح عليها .

ويشعر بهذا التعميم قول الجرجاني في كتاب التعريفات :

« الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ »

وقد يسر هذا التعميم حاجة الأديب إلى سعة المعارف والأخذ من كل فن بطرف ( كما قالوا ) وكذلك أدّى إلى هذا التعميم تولى الكتاب من الأدباء الوزارة ودواوين الدولة وحاجتهم إلى معرفة كل ما تصرفه الدول من السياسات وما يتصل بأعمالها من المعارف. ومن شواهد هذا أن كتاب « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » ضمن خلاصة المعارف التي كانت في عصره .

ومؤلفو الأدب في عصرنا يقسمون الأدب قسمين : الأدب بالمعنى الخاص وهو الشعر والنثر ، والأدب بالمعنى العام وهو كل ما أدركته أمة من المعارف . فيقال مثلاً أدب العرب لما أثر عنهم من نظم ونثر . ويقال أدب العرب أو آداب العرب لكل ما أثر عن الأمة العربية من آداب وعلوم .

وإنما دعا مؤلفينا إلى هذا أنهم قابلوا بكلمة أدب الكلمة الأفرنجية Litterature وهي تدل على كل ما تسجله لغة في عصورها كلها أو بعضها وتخص أحياناً بما يسمى عندهم Belles lettres أي الكتابة الجيلة وهي الكلام البليغ من الشعر والنثر . فلما ترجم كتابنا Litterature في معناها الخاص بكلمة أدب ، وهي ترجمة صحيحة ، ترجموها في معناها العام بكلمة أدب ، وهي ترجمة تحمل الكلمة العربية أكثر مما شاع استعمالها فيه على مر العصور .

ولو استعملت كلمة « معارف » في هذا المعنى العام لكان أقرب إلى الوضع اللغوي وأبعد عن اللبس .

وكان من الترجمة عن اللغات الأوربية أيضاً أن سمينا « كلية الآداب » ترجمة للتسمية الفرنسية Faculté des lettres ويقابلها بالانكليزية Faculty of arts فأطلقنا الآداب على اللغات وآدابها والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وجعلنا كلمة « آداب » مقابلة لكلمة علوم التي ترجمنا بها كلمة Sciences

عبد الوهاب عزام




(١) منقول من كتاب ( في أصول الأدب ) للأستاذ الزيات
(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٩